الجمهورية الجزائرية الديمقراطية الشعبية
وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة محمد لمين دباغين، سطيف2
كلية الآداب واللغات
قسم اللغة العربية وآدابها
محاضرات موجهة لطلبة السنة الثالثة ليسانس ـ الدراسات اللغوية بنظام (ل.م.د.)
مقياس منهجية البحث اللغوي
إعداد الأستاذة: دلولة قادري

المحاضرة السابعة
المنهج التاريخي (الإجراء)

المحاضرة السابعة

المنهج التاريخي (الإجراء)

عندما نتحدث عن المنهج التاريخي (Methode historique) أو الوصفي (Methode descriptive) أو المقارن (Methode comparative) أو التقابلي (Methode contrastive) في الدراسات اللغوية، فإننا نتحدث عن عبارات اصطلاحية ظهرت عند الأوروبيين في بداية القرن التاسع عشر الميلادي، حيث تغيرت نظرة العلماء للغة وأصبحوا يدرسونها لذاتها وفي ذاتها دراسة علمية تخضع لقواعد المنهج العلمي بمفهومه الدقيق، بعيدا عن الذاتية وعن كل ما هو أجنبي عن اللغة من منطق فلسفي أو ميتافيزيقي، بعدما كان العلماء قبل ذلك يهتمون بمجالات محدودة كالبحث في أصل اللغة والثروة الكلامية وضخامة التراث القديم وغير ذلك. ويكاد يتفق علماء اللغة المعاصرون والباحثون فيها على أنا اكتشاف إحدى اللغات الهندوأروبية القديمة ، وهي اللغة السنسكريتية (Sanskrit)، في نهاية القرن الثامن عشر للميلاد، قد أحدث نقطة تحول كبيرة في الدراسات اللغوية، وقد بدأ ذلك التحول بدراسة اللغة من منظور تاريخي، وهو ما يعرف بالمنهج التاريخي، أي أن دارس اللغة، وفق هذا المنهج، يتتبع ظاهرة لغوية تاريخيا، يقول اللساني الإيطالي الأمريكي ماريو باي (Mario Andrew Pei) (ت 1978م): "أما علم اللغة التاريخي فيتتبع تطور اللغة وتغيرها على مر الزمن (على سبيل المثال: تطور اللغة الأنجلوسكسونية إلى الإنجليزية الحديثة)، وهناك مصطلح يستعمل مرادفا لعلم اللغة التاريخي وهو (Diachronic linguistics) مكون من (Dia) بمعنى (عبر)، و (chronic) بمعنى (زمن)"، وقد بدأ توظيف هذا النوع من المناهج أواخر القرن الثامن عشر للميلاد بالرجوع إلى اللغة السنسكريتية (Sanskrit) على أساس أنها المرجع الصحيح للعالم الذي يبحث في اللغات الهندوأوروبية، اعتقادا منهم أنه من العبث البحث في اللغة من دون معرفة بهذه اللغة المنقرضة، ولذلك ارتبط البحث اللغوي في تلك الفترة بالبحث في النصوص والنقوش القديمة ، أي أنه يبحث في الوثائق على اختلاف أنواعها من أجل الكشف عن الخصائص الأساس للغات، وذلك بتتبع التغيرات التي تطرأ على الكلام الإنساني، ولقد تزامن ظهور هذا المنهج في

الدراسات اللغوية مع بروز نظرية النشوء و الارتقاء للجيولوجي البريطاني داروين (Charles Darwin) (ت1882م)، التي ابتدعها في ذلك العصر، وحاول العلماء إخضاع اللغة لتلك النظرية ، مثلهم في ذلك مثل غيرهم من العلماء في المجالات الأخرى، فبدأ علماء اللغة يبحثون في التطورات التي تحدث على اللغة، وفي تاريخ ألفاظها ، وغير ذلك مما يندرج ضمن البحث في اللغات القديمة.

ويتمثل المنهج التاريخي في القواعد والإجراءات التي يتبعها الباحث في جمع المادة التاريخية ودراستها و نقدها و تحليلها، ثم استخلاص النتائج والتعميمات منها، لذلك فإن المنهج التاريخي في الدراسات اللغوية يقوم بتتبع الظاهرة اللغوية خلال فترة زمنية معينة، وكذلك دراسة العوامل التي تأثرت بها في الفترات الزمنية اللاحقة، وصولا إلى دراستها في وضعها القائم، وذلك بهدف تفسيرها في سياقها التاريخي واستخلاص النتائج المترتبة عنها بما يتيح الفهم المتعمق لماضيها والتعرف الموضوعي لاتجاهاتها في المستقبل، أي أنه يسمح بحل مشكلات معاصرة على ضوء خبرات الماضي ويسمح بإعادة النظر في البيانات وتقييمها بالنسبة لفروض معينة أو نظريات قائمة، وهذا ما يبرز أهمية هذا المنهج في الدراسات اللغوية. ومن هنا تبدو الصلة بين هذا المنهج التاريخي وبين التاريخ بوصفه العلم الذي يهتم بدراسة الماضي، حيث يسعى المؤرخ إلى تقديم وصف دقيق وموضوعي لماضي الإنسانية والأحداث التاريخية التي مرت بها وما خلفته من آثار وحضارات، محاولا ربطها بسياق زمني معين بطريقة استقرائية يغلب عليها طابع التحليل والكشف عن العلاقات السببية للأحداث ، وفي البحوث التاريخية يجب أن يلتزم الكاتب بعرض المادة التاريخية عرضا أمينا وموضوعيا معتمدا على المخطوطات والنقوش المحفوظة على الأحجار وأوراق البردي وألواح الطين، وغير ذلك ، حيث يتبع هذا المنهج دراسة حالات تطور البنية والتراكيب والدلالة مع الاهتمام بمدى تأثير الإقليم الجغرافي على الظاهرة اللغوية عبر التاريخ ، فيهتم بوصف وتسجيل ما اعترى تلك الظاهرة من تغيرات في الماضي، ويقوم بدراستها وتفسيرها وتحليلها على أسس علمية دقيقة، حيث تجعل الباحث يشعر بالمشكلة ويقوم بتحديدها، ويصيغ الفرضيات المناسبة ويدرسها ويحللها قصد الوصول إلى حقائق و تعميمات تساعده على فهم الحاضر على ضوء الماضي، ومن أمثلة ذلك اختيار مجموعة من الألفاظ ودراسة دلالتها في الشعر الجاهلي ثم تطورها في العصور الإسلامية إلى عصرنا الحاضر، أو دراسة التغيرات التي تطرأ عليها من حيث خصائصها الصوتية أو الصرفية أو النحوية.

1-مجالات البحث اللغوي وفق المنهج التاريخي:

يمكن تحديد أهم مجالات البحث اللغوي وفق هذا المنهج في البحث في:

- تطور اللغة الواحدة عبر القرون في جميع جوانبها.
- حركة اللغة وتطورها على مر الأزمنة وتغير الأمكنة.
- تطور اللغة وحياتها في المجتمع.
- ارتباط اللغة بوظيفتها في الجماعة اللغوية.
- مستويات الاستخدام اللغوي المختلفة في حياة كل لغة.
- أثر الاستخدام اللغوي في بنيتها.
- أهمية اللغة الحضارية ومكانتها بين اللغات.
- الأصول التاريخية لكثير من الظواهر اللغوية.
- التغيرات التي تطرأ على أنظمة اللغة في مستوياتها الأربعة: الصوتية والصرفية والنحوية والدلالية، مع رصد العوامل المؤثرة في تلك التغيرات.

2-مجالات البحث اللغوي التي تفيد من المنهج التاريخي:

كما يمكن أن يفيد المنهج التاريخي مجالات كثيرة للبحث اللغوي على غرار :

- الدراسات المعجمية للوصول إلى بناء معاجم لغوية تكمل معاجمنا القديمة.

- التمييز بين الأصيل من المعرب والدخيل.

- تتبع حياة اللفظ العربي عبر العصور وتحديد التغيرات التي طرأت عليه في كل عصر من عمر اللغة شكلا ومضمونا.

- التعرف على ما غاب من ألفاظ عن أفق الاستعمال، وما انحصر استعماله على فن معين أو حرفة مخصوصة أو ظروف بيئية، وتحديد الأسباب والعوامل التي أدت لذلك.

- بناء المعجم التاريخي الذي لا يزال غائبا عن الساحة العربية، والذي يعتبر موسوعة يفيد كافة الموضوعات.

- إنجاز الذخيرة العربية من تراثنا العميق.

- معرفة المستعمل من المهجور في الصيغ الصرفية، وما طرأ عليها من تغيير.

- البحث في مجال النحو وما دخله من عوامل التفاعل الداخلي، وما طرأ عليه من بواعث خارجية، وما أكسبته العلة النحوية.

- التعرف على ما هو ثابت في النحو وما هو متغير، بمتابعة كل تغير في حركة النحو أو سكونه في كل مرحلة زمنية، وفي كل بيئة مكانية، و تحت تأثير مختلف العوامل داخلية كانت أو خارجية، مع تقديم التفسير المقنع لذلك التطور.

3-طبيعة وخصائص المنهج التاريخي: إن من أهم خصائص المنهج التاريخي أنه:

- يجث في لغة ما وفي مكان محدد، في مراحل زمنية مختلفة لبيان التغيرات التي لحقتها، وتحديد الأسباب والنتائج.

- يعتمد على اللغة المكتوبة لا المنطوقة، لعدم توافر المادة المنطوقة للمراحل الزمنية السابقة، فهي غير مسجلة، وإنما نقلت إلينا بواسطة الخط المكتوب.

- الأنسب لدراسة اللغة المكتوبة.

4-خطوات المنهج التاريخي:

إن من أهم خطوات المنهج التاريخي ما يلي:

- اختيار مراحل تاريخية محددة.

- دراسة الموضوع على حدة دراسة وصفية في كل مرحلة.

- المقارنة بين المراحل لتحديد التغيرات التي حدثت.

5-شروط استخدام المنهج التاريخي:

إن أهم شرط من شروط استخدام المنهج التاريخي هو عدم تجاوز المراحل الزمنية المحددة ولا المكان والمستوى المحددين، لكي لا تضطرب النتائج.

خلاصة: من خلال ما تم ذكره في هذه المحاضرة، نرى أن توظيف المنهج التاريخي في الدراسات اللغوية قد مهد بشكل واضح لظهور منهج آخر ذي صلة وثيقة به، وهو المنهج المقارن الذي مكن العلماء من تصنيف اللغات إلى مجموعات أسرية، تضم كل أسرة مجموعة من لغات العالم تشترك فيما بينها بخصائص لغوية معينة.